



تظهر حقيقة اليقين بالله في مراحل الضعف، إذ ليس صاحب اليقين من تنفرج أساريره وينشرح صدره ويتهلل وجهه حين يرى قوة الإسلام وعزه أهله ويشائر نصره، وإنما يكون اليقين لصاحب الثقة بالله مهما حلك الظلام، واشتد الضيق، واجتمعت الكروب، وتکالبت الأزم، لأن أمله بالله كبير ويقينه بأن العاقبة للمتقين، وأن المستقبل لهذا الدين.

ولأن المجاهد يسعى لإقامة دين الله في الأرض، فإن سبيله إلى ذلك الصبر واليقين، يقول ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: بالصبر واليقين تناول الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} (السجدة: 24).

وأهم ما يؤتاه المرء اليقين، كما في الحديث: "وسلوا الله اليقين والمعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة" (صحيح الجامع، صحيح الألباني).

ولا تهلك هذه الأمة إلا حين يدخل أبناؤها بتقدیم الجهود المتاحة لنصرتها، ثم يتجرعون كؤوس الأمل بلا عمل، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل" (صحيح الجامع، حسنة الألباني).

ولأن الله وحده هو عالم الغيب فلا نdry متى النصر؟ ولا نعلم أين الخير؟ ولكن الذي نعلمه أن أمتنا أمة خير بإذن الله يرجى لها النصر من الله ولو بعد حين، ويشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله: "مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره" (صحيح الجامع، صحيح).

ولأن نdry على يد أي جيل يكشف الله الغمة، ويرفع شأن هذه الأمة ولكن الذي نdryه أن سنة الله في الكون كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيمة" (صحيح الجامع، حديث حسن).

لقد جاءت بشائر كثيرة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تجدد الأمل وتثبت اليقين، منها وعد الله بأن يبلغ ملك الأمة المشارق والمغارب ومازالت هناك بقاء لم تقع تحت المسلمين، ولابد أن يفتحها الإسلام، كما في الحديث: "إِنَّ اللَّهَ زَوْيَ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أَمْتِي سَيَبلغُ مَلْكَهَا مَا زَوْيَ لِي مِنْهَا" (رواه مسلم).

فإذا عرفنا أن الأصل في الإسلام العلو والسيادة والتمكين، فلا نستئس من ضعف المسلمين حيناً من الدهر، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإسلام يعلو ولا يعلى" (صحيح الجامع، حديث حسن).

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم باستمرار زيادة الإسلام: "وَلَا يَزَالُ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ زَوْيَ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أَمْتِي سَيَبلغُ مَلْكَهَا مَا زَوْيَ لِي مِنْهَا" (صحيح الجامع، صحيح).

فالأمل باق، وامتداد سلطان المسلمين مستمر بإذن الله.

وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببشريات تذيب كل يأس، وتدفع كل قنوط، وتثبت كل صاحب مهنة، وتريح قلب كل فاقد للأمل بأبناء هذا الدين، حين لا يجد بصيص أمل يلمع له حيث قال: "بَشَّرَهُمْ بِأَنَّ الْأَمْمَةَ بِالسَّنَاءِ وَالدِّينِ وَالرَّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالْتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ..." .

والجهاد مستمر إلى يوم القيمة، والطائفة الظاهرة على الحق لا يضرها من خذلها، وهي مستمرة حتى يأتي أمر الله، وفي ذلك يقول: "لَنْ يَبْرُحْ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يَقْاتِلُ عَلَيْهِ عَصَابَةٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" (رواه مسلم).

والمقياس عند الله غير مقياس البشر، إن الله يجعل من الضعف قوة ، وذلك واضح من التأمل في قوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَمْمَةَ بِضَعْفِهَا، بِدُعُوتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ" (صحيح سنن النسائي للألباني).

إن ذلك المسلم المسوق بالأغلال، المحبوس في الأقبية، الملاحق في كل مكان، الفاقد للسلاح، الفقير المعدم، بدعوته وصلاته وإخلاصه ينصر الله هذه الأمة، رغم كل صور الضعف التي تمثلت فيه، وكما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رَبُّ أَشْعَثَ مَدْفَوْعَ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَىَّ لَأْبَرْهُ" (رواه مسلم).

قد نرى القوة اليوم بيد أعدائنا والغلبة لهم علينا... ولكن لا ننسى أن الله هو المتصرف بهذا الكون، وعينه لا تغفل عن عباده المؤمنين، ولن يرضى لهم دوام الذلة واستمرار ال欺辱، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَضْعِفُ أَخْرَيْنَ" (صحيح الجامع، صحيح).

ولابد أن يرفعنا بعد أن وضعنا، إذا رأى منا صدق السعي لمرضاته.

وفي كل قرن يعيد الله اليقين إلى نفوس الأمة، بأن يجعل فيها سباقين في الخير، لا يبالون بالمحن، يتأنى الناس بهم كما في الحديث: "فِي كُلِّ قَرْنٍ مِّنْ أَمْتِي سَابِقُونَ" (صحيح الجامع، حسن).

كما يجعل في الأمة من يصح لها المفاهيم، ويسيّر بها على الجادة، ويقودها إلى الهدى، ويحدد لها أمر دينها، وقد بشر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لَهُذِهِ الْأَمْمَةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائَةِ سَنَةٍ مَّنْ يَجْدِدُ لَهَا دِينَهَا" (رواه أبو داود وصححه الألباني). فإذاً أن يأتي الفرج على أيدي السابقين، وإنما أن يأتي على أيدي المجددين، ولكن الكرب لا يدوم.

وجميع أعداء الإسلام واقعون في دائرة تهديد الله لهم بالحرب، ومن كان الله حرباً عليه فلا خوف منه ولا أمل باستمرار سلطانه علينا كما جاء في الحديث القدسي: "مَنْ عَادَ لِي وَلِيَا فَقْدَ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ..." (رواه البخاري).

فلنتوافق بالصبر على البلاء، والثبات إذا وقع القضاء، ولكن بشير خير، ولا نكون نذير شر، ولنقل للمتسائرين بعد طول انتظار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه حينما اشتكوا من كثرة البلاء وشدته: "وَاللَّهُ لِيْتَمْنَ اللَّهَ هَذَا الْأَمْرُ... وَلَكُنُّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ".

إن الثقة التي يريدها رب سبحانه وتعالى من عباده هي الثقة التي تحققت في أم موسى عملياً حين قال عنها: {فَإِذَا حِفْتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّ رَادُّهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (من الآية: 7) وهكذا ألقته في اليم ولم تخف ولم تحزن، مع أن اليم خطير على الطفل الرضيع عادة، وكتب الله له النجاة، وتلقى فرعون الطفل الرضيع، ولم يخف من كفالته في قصره، لأن الطفل الرضيع لا يخيف من رياه عادة، فكان هلاك فرعون على يديه، وهكذا تجري عجائب قدر الله...

وقد حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أصناف من الناس لا خير فيهم: "ثُلَاثَةٌ لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ.. وَرَجُلٌ فِي شَكٍ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوتُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .." (صحيح الجامع، صحيح).

ولذلك فإن الأمة التي نخرها الشك، ونهشها القنوط لا يرجى خيرها ما لم تستعد الثقة واليقين بنصر رب العالمين. إن عقيدة الإيمان بالقدر مصدر من مصادر الثقة بأن العاقبة للمتقين، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ إِيمَانِهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُؤْهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبْهُ" (صحيح الجامع، صحيح).

ليست المسألة مسألة تخلف وعد الله حاشاه سبحانه وتعالى ولكنها مسألة التوفيق المقدور، والأجل المحدود، الذي لا يتقدم لاستعجال متجل، ولا يتأخر لهوى كسرى، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يدعوا: [اللهم رضني بقضاءك، وببارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء آخرته، ولا تأخير شيء عجلته]. وبهذه النفسية تزول ظاهرة الاستعجال، ويطمئن القلب بأن العاقبة للمتقين.

ولئن مرت الأمة بفترات ضعف فلا ننس أنها تقدير الله ، الذي يقدر على إعادة عز ضاع، واسترجاع سيادة مضت، و شأن البشر الصعود والنزول، كما في الحديث: "مِثْلُ الْمُؤْمِنِ مِثْلُ السَّنْبَلَةِ، تَمِيلُ أَحْيَانًا وَتَقُومُ أَحْيَانًا" (صحيح الجامع، صحيح). المهم أنها تقوم يوماً ما، وتلك سنة كونية وهذا اليوم آت لا محالة إذا توفرت الأسباب.

وهكذا مضت سنة الله في الأمم، كما في الحديث "عرضت على الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيب، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد...".

ومع ذلك استمرت الدعوة، وستبقى مهما لقيت من الضعف في بعض الأزمان، ولن يعيي النبي الذي ليس معه أحد أنه لم يهتد على يديه أحد، رغم بذله جهده في دعوته، كما لا يعيي المجاهد ألا يصل إلى النصر، رغم طول جهاده، إنما يعيينا التقصير فيأخذ الأسباب، والبخل بالجهد المستطاع وإن قل والباقي تعهد به الله حين يشاء.

ولما يخشى الشهداء على من بعدهم من الأحياء من ضعف الثقة المفضي إلى الزهد بالجهاد، أو اليأس من ثماره، يقولون لربهم سبحانه وتعالى: "مَنْ يَبْلُغُ إِخْوَانَنَا عَنَا أَنَا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نَرْزَقُ، لَئِلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجَهَادِ، وَلَا يَنْكِلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ سَبَّحَنَاهُ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ ..." (رواه أبو داود، وحسنه الألباني).

فلا بد لليل أن ينجل، ولا بد للغباء أن يذهب جفاء، ولا بد لما ينفع الناس أن يمكث في الأرض، ويمضي قدر رب العالمين في أن تكون العاقبة للمتقين.

